تعقيبات

حكاية أبي عبدالله وأمه وأفعال الأمر والبكاء!!

صلاح حسن رشيد

نشرت «مجلة الأدب الإسلامي» في عددها الثالث قصيدة للأستاذ محمد عبدالقادر الفقي بعنوان «البكاء على غرناطة» وهي من الشعر العمودي، وتدل على استمداد الشاعر من التراث، صورة محزنة، يعالج بها مآسي الحاضر ونكباته، وهي في جُلّها لا تعدو ضربات موجعات على صدر أمتنا، كي تفيق مما هي فيه، وتهب واقفةً في وجه مَنْ يتربص بها، على أن قصيدة الفقي في مجملها لم تَزِدْ على هذه الضربات أي نغمة فنية أو سمة جمالية.. بل هي نبرةٌ خطابية مكرورة الجوانب، مُعَادة الأسلوب..!! مما جعلني أستوقف أمام هذه القصيدة، لأبرز بعض الملامح، وهي كما يلي:-

١- أفعال الأمر: لقد كثرت في القصيدة أفعال الأمر كثرةً فاحشة وكذلك العبارات النثرية والخطابية مما أفقد العمل قدرته الفنية، فخرج به من نطاق الشعر والشعور إلى ما يشبه الشعر أو إلى صورة أقرب ما تكون إلى النثر!!

انظر إليه في مفتتح القصيدة، وانظر إليه في وسطها، وانظر إليه في نهايتها، فإنك ستجد عماد بنية القصيدة فعل الأمر والنهي والطلب، وافعل ولا تفعل مثل: «ابك مثل النساء - فاحصد - الطم خدوداً - انتظر طعنةً - فَاجْنِ - والعق الذل...الخ».

٢- لغة القصيدة وصياغتها:- وردت في القصيدة بعض الكلمات غير الدقيقة والتي أفقدتها كثيراً من جو البكاء والضياع والتشرد مثل قول الشاعر: «أنت أهملته» في البيت الأول والأَوْلَى أن يقول «أنت ضَيَّعْتَهُ» فلفظ الضياع أشمل وأعم من لفظ الإهمال، وهو يدل على مقدار ما أصاب غرناطة على عهد أبي عبدالله من ضعف وخور بسبب ضعف ملوكها، فكان ضياعها نتيجة لتضييع الملوك لها، علاوة على أن ورود حرف الضاد في لفظ «ضَيَّعْتَهُ» يحقق التجانس الصوتي في البيت مع كلمات مثل «أُضيعا - فأضحى» لتحقق نعمة الضياع والاضطراب!!. وفي البيت الثاني نجد الشاعر ينسب عدم الزَّوْدِ عن غرناطة إلى رجال الملك، ونَسِيَ دور الملك، فبسبب ضعفه وانشغاله بمصالحه هو ضاعت غرناطه!!

٣- جو القصيدة ومشاعرها:- في القصيدة توجعات وآهات.. بل وصرخات مدوية، ضربات هنا، وعويل هناك، أبياتها مكرورة، فما قاله الشاعر في فقرته الأولى رجع وأعاد في فقراته الأخرى من دون الاتكاء على شاعرية حقة تستحق الإشادة، فكان جو القصيدة في مجمله ينبىء بأن الشعر عَوْدٌ على بَدْء...!! والشعر في رأيي جيشان شعور طاغٍ سيطر على ذات الشاعر، فيحيله من واقعه المعيش إلى واقع فتى يشخص فيه الأحداث والوقائع أمام ناظرينا، كأننا نراها ونسمعها.. بل نشارك في أحداثها.

٤- وبكاء الفقي بكاء غير فني، لأنه لم يحرك فينا مواجدنا، ولم يجعلنا نهيم في أحزاننا، وإنما هو استبكاء، ووقوف على الديار والأطلال فقط كالعادة القديمة!! ثم إن بكاء النساء وقت الشدائد والمحن والمصائب بكاء صادق يلهج بالحرقة والحزن، فإذا ما بكى الملك مثل النساء وقتئذٍ فإن بكاءه سيكون على درجة عالية من الفنية والاقتدار، فَعَلاَمَ سخر الشاعر عندما طلب من الملك أن يبكي مثل النساء؟! ولم استهزأ ببكاء النساء؟!

لا أدري... ربما أراد الشاعر أن يجعل بكاء النساء دليلاً على الخيانة والغَدْر!!

وفي الختام.. فإن جو القصيدة بما فيه من بكاء وحزن وصراخ جو خارجي بعيد عن الصدق الفني والإحساسات التي تحرك الجماد فتجعله آدمياً يرى ويسمع ويعيش واقعنا التعيس، واقع أصبح كل ما فيه ينطق بالضعف والتخلف ديناً ودنيا!!

القبْـوُ الزجـاجيّ

رسالة إلى «محمد الفاتح»

شعر / د.صابر عبد الدايم*

أيها الفاتح.. ضيَّعْنا مفاتيح المدائنْ!!!
ونسينا البحْر.. والموج وتهليل السفائنْ!!!
ونسينا الخيل والرمح.. وأسرار الكمائنْ
سورُة الفتح هجَرْناها.. وبدَّدنا صداها
وتراءت في حنايانا أنينا وحنينا
كل أشجار الفتوحات أراها
عارياتٍ منْ رؤاها
منْ ثمار المجْد...
في أوراقها جَفَّتْ دماءْ
كنتَ تَسْقيها شذاها
أيها الفاتح أقْبل... أنت ما زلت فتاها
اترع السيف من الغمد فقد تهنا وتاها!!!
لم يزلْ سيفك في القبْو الزجاجيّ سجينا
نائماً في غمده يحرس أسياف الخلافةْ!!!
و إلى جانبه سيف عليّ «ذو الفقار»
ذلك الباتر في كل غزَاةٍ سيرةَ الكفر... صداه وشغافَهْ
انظر الآن إليه...
ليس إلاّ أثراً يشهده «السُّيَّاح» من كُلِّ القفارْ!!!
وضعُوه حِلْية للزَّهْو.. واللهْو بأزْمان الفتوحات الكبارْ!!!
أيها الفاتح.. ضيَّعْنا مفاتيح المدائنْ!!!
...خالد... في عصرنا يسجن في قبرٍ زجاجيّ...
وللفاروقِ والصِّدِّيق ذيَّاك المصيرْ!!!
...هذه أسيافهم مثلومة تَنْعَى إلينا
حدَّها المغتال في جوف القبورْ!!!
أيها الفاتح أمسى السيف ظلاّ
ووشاحاً ساكناً فوق الصدورْ!!!
إنه أضْحى لدى الأتراك مرسومَ ضيافَهْ
إنه أصْبَح نقشاً فوق جدران الطلولْ
كل من يشهده...
يقرأ في جبهته عصْر روايات الأفولْ
... وأنا جئت إلى قصْرك ضيفاً ما معي إلاّ الهويّه
إنها «الله ولا ربَّ سواه»
إنها «لا إله إلاّ الله - محمد رسول الله»
...جئتُ والقلب بأبواب الفتوحات مُعَلَّقْ
جئت.. لكنْ
باب «إسْلاَمْبولَ» في وجْهي مُغْلَقْ!!
صدَّني عنْ بابك العالي
انكشاريٌّ بلا أي هُويَّهْ
جاء منْ أرض الشتات الهمجيَّهْ
...قلت إني..
من جنود الفاتح القائد حامي أرْض كل المسلمينْ
قال: في القاعة لا يوجَدُ إلاّ
بعضُ أشلاء من العهد الطعينْ
إنّها رائحةٌ مِنْ زَمنٍ
كان...صُعُوداً.. وانْحداراً.. وانكساراً بين أيدي الخائنين».
إنها أطلال تاريخ.. وأشباح رجال...
سكنوا القبْو الرخاميّ السجينْ!!!
رحلت ذاكرتي في مدن الشعْر...
... وأصْغت لأمير الشعراء
في شرودٍ وعَياء
«الله أكبرُ كَمْ في الفتْحِ مِنْ عَجَبِ
يا خَالِدَ التّرْكِ جدِّدْ خَالِدَ العَرَبِ»
أيّ فتحْ... يا أمير الشعر في عصر الفتوحات العقيمهْ؟
أيها الفاتح... «إنا... قد فتحنا لك فتحاً..
كان - بالحق - مبينا»...
... وأبو أيوب فوق السور ما زال يُكبِّرْ
الله أكْبر.. الله أكبر.. أالله أكبرْ
غُلب الرُّوم.. وأشجار الفتوحات تُهلِّلْ
...والنواقيس تلاشتْ
والجيادُ الصافناتُ المؤمناتْ
في ميادين الوغى تصهلُ... بالفَتْحِ تُحَمْحِمْ
وعلى الشاطىء تختال المآذنْ...
وتُصلِّي وتُسلِّمْ
إنه الماءُ يسبّحْ
والنجيمات تُسَبّحْ
والمنارات تسبّحْ
والمجاديف تسبّحْ
إنه اللهُ ... فسبّحْ باسم ربّكْ

(*) شاعر وناقد مصري، صدرت له عدة دواوين وكتب، يعمل الآن أستاذاً بجامعة أم القرى، معاراً من جامعة الأزهر.

إنه حامي الحمى حارسُ دربكْ
أيها الفاتحُ...
في ظِلّكَ ظَلّ السَّيْفُ مصْبَاحاً مضيئاً
حارِساً شِرْعة ربّكْ...
هل أعود الآن من وهمي..؟ أعودْ...!!
حاملاً في القلب مشكاةً حزينهْ!!
ضوؤها الدُّريُّ من نيران أشلائي يمتاحُ الوقودْ!!!
نقشها الساكن في القلب تواريخٌ لأمجادٍ طعينهْ
وفضاءات غمامات وأسراب بروق ورعودْ
أيها الفاتح «إسْلاَمْبُولَ» يغزوها الجرادْ
وجْهها الأبيضُ ألقَوْا فوقهُ قَارَ الفسادْ
سلبوها العرْض.. والأرض وباعوها جهاراً في المزادْ
جاءها من كل فجّ أزرَقُ الناب...
ومصّاصُ الدماءْ
أحْمَدُ الرَّغْبةِ في عَيْنَيْه أمواجُ الدَّهاءْ
أصفرُ البسمةِ في خطوته ريح الفناءْ
...أطلق الريح.. العقيمْ
آيا صُوفْيا في مهب الريح شيخٌ جذرُهُ في الأرض موصول بأسباب السماء
صورة العذراء في محرابه تغشى وجوه العابرينْ
متحفاً صار لأجسادٍ عراةْ..
يصلبون العُمْر إثماً في مساءات الجُنونْ
خطفتني الريح ألقتني «بوادٍ غيْر ذي زَرْعٍ».. سرايفو...
جبالٍ من جليدٍ ودِماءْ
وتلالٍ من عظام وفَنَاءْ...
أيها الفاتح «إسْلاَمْبول» يغزوها الجَرادْ..
في سرايفو وبيهاتْش وفي الشيشان في القرْم
وحوش الصِّرب تغتال الطفولةْ...!!!
في دماء التائبين..الراكعين...الساجدين الشهداءْ
همْ يخوضون ويلهون بأجْساد النساءْ
ويبيدون الرجولة!!!
يزرعون الرحمَ المؤمنَ كفراً.. وشياطينَ عَذابْ
في خلايا الطُّهْر يلقون المنايا... شكّلتها نطفٌ
تقذفها في الرحمِ المؤمِن أصْلاَبُ الكلابْ!!!
والصناديدُ الصِّلابْ
حُرِّقوا في دارهمْ.. لا جُرْمَ إلاّ أنْ يقولوا: رَبُّنا اللهْ..
حملوا القَبْر على أكتافهمْ.. لا جُرْم إلاّ أن يقولوا: ربنا اللهْ
أكلوا الميْتة والعشْب وماتت شمسهم
لا جُرْم إلاّ أن يقولوا: ربنا اللهْ
شهدوا أعضاءهم تسقط من أجسادهم
لا جُرم إلاّ أن يقولوا: ربُنا اللهْ
بالمناشير يُشَقّونْ:
ويقولون: ربُّنا اللهْ
بالوحوش الطائراتِ القاصفاتْ:
يُمْطَرونْ: ويقولون: ربُّنا الله
بالنجوم المرسلاتِ العاصفاتْ
يصعقون: ويُنادونْ: ربنا الله
بالجَوَارِي الذاريات الحاملاتْ
نذُرَ التيه وإشعاع الموات
: ينسفونْ: ويصيحونْ: ربنا الله
إنّهم يَحْيَوْن في الموْت الشهادةْ
لهم الحُسْنى خلوداً وزيادةْ
أيها الفاتحُ إني طالعٌ من هؤلاء
إنهم من شجر النار مجيئون ومن شَمْس الهُدَى والكبرياء
إنهم ضَوْءُ التجليّ
...والخيول العاديات الموريات...
إنْ أتى الطوفانُ واجْتاحَ النهاراتِ وإيقاعَ البقاءْ
إنهم أحفادُك الغرُّ الميامين...
يقودون سباق الشهداءْ
أيها الفاتح إنيّ.. جمرةٌ من هؤلاء...
مات فيّ الشجرُ اليابسُ
واستيقظ فيّ الفارسُ.. الواحدُ بالألفِ
...والفيْتُ ظلال الوحْي والتوحيد تمتد وتُلقي
شهبَ الحق وأقْمار الإباءْ
أيها الفاتح.. هل ضاعَتْ مفاتيحُ المدائنْ؟؟
...المحاريبُ فراغاتٌ وأشْلاءٌ مآذنْ!!!
والمصلّون...يُغَلُّون.. ويَصْلَوْن سعيراً!!!
أتُرانا:
نَفْتَحُ الآن كتابَ الماء... نغتال الهجيرا
أترانا
...نعلن الآن اكتشافات الفتوحْ
نقبض الآن على الجَمْر ونغتال السفوحْ
أم ترانا
لم نزل نغدو خِماصاً.. وكما كنّا نروحْ!!!
ومفاتيح المدائنْ
لم نزل نبكي عليها ونَنوحْ
سورة الفتح هجرناها...
ومزّقْنا صداها...
وتراءتْ في مآقينا دماءً وقروحْ
كل أشجار الفتوحات أراها
عارياتٍ من رؤاها
مِنْ ثمار الفتْح...
... في أوْراقها جَفّتْ دماءٌ
كنتَ تسقيها شذاها
أيُّها الفاتح أقْبلْ أنت ما زلْت فَتاها
انزع السيف من القبو الزجاجيّ
فقد تُهنا وتاها...!!!